إطلالة

مفهوم طارئ لإخفاء جريمة كُبرى

ليست عدالة الغرب

الإرهاب الحقيقي هو ما فعلته «إسرائيل» تحت الرعاية الأميركية، وشارك الغرب بصناعته، أيضاً، حين استغلّت الدول الكبرى مصطلح الإرهاب، وتركته طافياً من دون تحديد، لتستطيع أيّ دولة أو مجرم أو سفّاك دماء التعلّل به

فوّاز حدّاد

باتت الحرب على غزة تُثير السخرية من الجيش الإسرائيلي وقادته، مع رعاية الغرب الذي اتّفقت كلمتُه حول السماح باستمرار استعمال السلاح الثقيل حتى القضاء نهائيا على «حماس». غدا عدم وقف إطلاق النار ضرورة، فالجيش الإسرائيلي لم يُنه «مهمّاته» بعد. هذا الموقف الصّلب يتضمَّن التشجيع على القتل دونما رحمة، بحجّة الرد على «إرهاب حماس»، ما يُعيد ثقة الإسرائيليّين بجيشهم الذي «يحقّ له الدفاع عنهم ضدّ الإرهاب الفلسطيني»، خاصة أنه لا تردُّد ولا جدل حول القضاء على الإرهاب، ولو كان بالقتل العشوائي، وهكذا ما زالت بوّابات الجحيم تصبُّ حِمَمها على غزّة وتخلّف آلاف الشهداء أغلبهم من الأطفال.

وإذا كان الشرّ قد استفحل وتمدّد إلى محاولة تهجير أهالي غزة، فلم يعُد مجرمو «إسرائيل»، الثلاثي: نتنياهو وغالانت وغانتس سوى شياطين الثأر، حسب مُعلّق في وسائل التواصل، أكد المتابعون أنه لم يخطئ، عندما وصف وزير الدفاع غالانت بالمُمثّل التافه الذي ارتدى قناع مُنتقم جبّار، بترديده: «لا قيود ولا حدود أمام جنودنا في غزة لاستخدام القوة». هل هذا ما يتطلّبه تمثيل شخصية بطل لرجل مهزوم، وَغدٍ ورعديد؟ أما سموتريتش وبن غفير وعميحاي، فلا يزيدون عن زعران الشوارع.

لا تصعب معرفة ما الذي يجعل وزير الدفاع، هذا الرجل متجهّم الملامح يتكلّم بقوّة وعزم. الجواب: لم لا؟ ما دام السلاح أميركيّاً، والمليارات أميركيّة، والفيتو أميركيّاً، والضوء الأخضر أميركيّاً، يُضاف إليهم ما شكّلته بريطانيا وألمانيا وفرنسا من عصابة مُلحقة بالأميركي، تُظهر التعاطف مع اليهود والولاء للصهيونية، بدعوى أن ما يفعله الجيش الإسرائيلي، هو الدفاع عن «إسرائيل» الواحة الديمقراطية بقصف المستشفيات والمساجد والكنائس وبيوت الآمنين عن بُعد، وإذا واجهوا الفلسطيني، فداخل دبّابات مُصفّحة، من سوء حظّهم أنها لا تصمد.

ليس ترديد كلمة «الإرهاب» على أفواه الرؤساء والقادة في «إسرائيل» وسياسيّي الغرب، مجرّد كلمة عابرة أو مفروغ منها، إنها مصطلح سحري، يعني صلاحية إيقاع الموت والدمار بالحدود القصوى دونما مساءلة، وإذا كان بوحشيّة، فمُبرَّرٌ جداً، حسب الشائع الدواء من الداء. لن نستغرب، فالإرهاب وتفسيراته عائدة إليهم، هذا مصطلح صُكّ، بعد سقوط الشيوعية، استُخدم لمواجهة الشعوب المطالبة بالحرية وحقوقها السياسية والاقتصادية والثقافية، صُمّم لطمس العدالة الإنسانية، لتصبح العدالة، عدالة الغرب فقط. لذلك كان الدفاع عن جريمة اختلاق «إسرائيل» واستمراريتها نتاج مفهوم عدالة طارئة ومصطنعة على قياس إخفاء جريمة كبرى.

قدّم الإرهاب الذريعة لتمدُّد «إسرائيل»، وعطّل أيّ حلّ للقضية الفلسطينية. وبما أنه لا وجود للإرهاب، بات اختراعُه مطلوباً. إذ إن أي نضال في سبيل التحرُّر أو ضد العنصرية والحقوق المُستلبة والأراضي المسروقة، يُسهّل إيجاد حلّ له، لكن مصطلح الإرهاب سيضع حلّاً قسرياً له طبقاً لعدالة الغرب. ماذا تكون هذه العدالة بالنسبة للعلاقة مع «إسرائيل»؟ حسب اعتقاد الغرب، إنه أدّى خدمة لها، بتكريس دولة لليهود على حساب شعب ووطن، ثم بالذَّود عنها ومدّها بالمساعدات والسلاح طوال عقود طويلة من المجازر، وتاريخ من الجشع إلى المزيد من قَضْم الأراضي، والتغاضي عن كلّ ما تفعله من قتل وتدمير بلا خطوط حمراء، والتسامح معها، مؤخّراً، حتى في العقاب الجماعي المُمارَس ضدّ المدنيّين ما يُعدُّ جريمة حرب، كانوا خلالها الدرع الواقي لحماقة نتنياهو وتطلّعه الدائم للسلطة. عسى تغفر «إسرائيل»، هل أبرأت ذمّتهم من «الهولوكوست»؟ لا، شايلوك سوف يستثمره دونما انتهاء. أما الفلسطينيون فمتّهمون بعدم الواقعية، إن الواقعية تُملي عليهم إخلاء منازلهم وأراضيهم والتشرّد في أراضي الله الواسعة، ستّتسع لهمُ صحاري العرب، إنها مفتوحة لهم. هذا منطق الصهيونية، بالتالي تصبح «حماس» منظّمة إرهابية لا حركة تحرُّر وطني. هل تحتاج قضية فلسطين لأكثر من خمسة وسبعين عاماً للبقاء دونما حلّ؟ زمن مضى في المُماطلة والتسويف والاستيلاء على الأراضي واضطهاد الأهالي. لن ينسى الغرب دوره القادم بعد مجازر غزة، سيستعيد دوره الإجرامي، لكن ليس قبل دوره الإنساني، بالسماح لمنظّمات الإغاثة والأطبّاء بتطبيب الجرحى، أما الأموات فدُفنوا، والأهالي هُدمت بيوتهم وباتوا بلا مأوى، أما الفضاء فما زال مفتوحاً للقصف، إن لم يصدع الفلسطينيّون لحلّ قد يكون الموت أهون منه.

إنّ الإرهاب الحقيقي هو ما فعلته «إسرائيل» تحت وصاية الأميركان، وشارك الغرب بصناعته، ثم بصَمته، فتأييده. ليس الإرهاب اتّهاماً مائعاً، وإلّا لكان من المُمكن أن يستعمله الجميع ضدّ الجميع، ما يسمح بتبادل الاتّهامات، وأن يُصبح هؤلاء الذين يُطالبون بحقّ العيش فوق أرضهم إرهابيّين، ما يُشكّل ذريعة تسمح بقتلهم. هذا إذا كان تفسير الإرهاب على النمط الغربي، ما يُحيله إلى حُجّة تستطيع أيّ دولة أو مجرم أو سفّاك دماء التعلُّل به.

إن ترك مصطلح الإرهاب طافياً من دون تحديد، يسمح للدول الكبرى باستغلاله كما اعتادت، وحمايته بـ«الفيتو» في مجلس الأمن، وتمريره بالأكاذيب، مع أنّ الجميع يعلم أنه إذا كان الإرهاب لم يتوقّف، فلأنّ الظلم ما زال سارياً في كوكبنا، ولن يتوقّف إلّا بمعالجة أسبابه، واستئصال جذوره التي تمدُّه بالحياة. إنه قصة العدالة، لكنها ليست عدالة الغرب الاستعماري، ولا سياسات بلا ضمير.

(روائي من سورية)

يختزل «الإرهاب» العدالة الإنسانية وفقاً لمقياس غربي

من مظاهرة داعمة للقضية الفلسطينية أمام مبنى الكابيتول في تكساس، 12 الشهر الجاري (Getty)

في مداها الإنساني

ليست الإنسانية كذبة إنها حقيقة، مهما حاول الغرب التلاعُب بها باستعمال السياسة للمراوغة وقلْبِ الحقائق، إلى حدّ الاعتقاد بأن العدالة عدالتهم وحدهم، وأنهم نجحوا في دفع الفلسطينيين إلى اليأس منها. بيد أنهم لم يدركوا أن العدالة ليست احتكاراً غربياً، كما لم يدركوا أن عملية السابع من تشرين الأول/ أكتوبر، كانت إحدى نتائج ذلك اليأس، الذي صار سلاحاً. أما العدالة فإنسانية، تلك التي لن تعرف فلسطين غيرها.

يوميات

أن تفقد البيتَ واللغة معاً

بعد نهاية يوم القيامة

كنت أجلس مع أمّي بالساعات ولا نتكلّم. مع جدّي وجدّتي كذلك. من قال إنّ سرقة وطن، وإرسال ناسه إلى جحيم اللجوء، يمكن التعبير عنهما بالكلام؟

باسم النبريص

في الحرب، أثناء القصف، يولد من هول الصدمة الهذيان. في الحرب، بعد القصف، يولد من هول الصدمة المونولوغ. تسود الهذيانات، وتعقبها المونولوغات. ولا يعود الضحية بحاجة للحوار، إلّا نادراً، وفقط حين يحتاج ضرورات العيش، على غفلة. في الحرب، خلال القصف وبعده، يتغيّر المنظور البشري لكلّ المفاهيم، ويصبح مفهوم «الواقعية»، عبر الحواس الخمس، غير واقعي، وأقرب إلى وهم منه إلى الحقيقة.

أتّصل بعائلتي النازحة في المدارس، كلّما يتوفّر نِت، وتُخبرني ابنتي الحاصلة على درجة عليا في علم النفس أنّ غير قليل من جيرانها السبعين في الغرفة، لم يخرجوا من «الرضّة» بعد، رغم مكوثهم مدّة تنوف عن الشهر. تقول إن خِطاب النازح الطويل يكاد يتحوّل، وهو في زحمة الجموع، من ديالوغ إلى مونولوغ، في هذا الانقلاب المفاجئ على روتين حياته.

تقول إنّ غزّة، لو كُتب لأهلها البقاء على الأرض، بعد نهاية يوم القيامة (ولسوف يُكتب بالصمود والمقاومة)، أحوج ما تكون إلى عمل إعجازي مادّي في جميع المجالات: إلى حركة بعث من الصفر، ومن ضمن هذه الحركة، ضرورة توفير جيش من الأطبّاء والمعالجين النفسيّين، حتى لو بدا هذا ترفاً، بمقاييس الحال والمال. تقول إنّ اللغة وطن بالعموم، ولكنّ من يفقد بيته (والوطنُ بيتٌ)، يفقد لغته أيضاً. تقول إنّ نوعين من اللغة، غير ما سبق، يشيعان في أمكنة النزوح: الهمس والصمت. الهمس تلبيةً لحاجة قصوى، والصمت تعبيراً عن استدعاء كلّ ما يعصى على التعبير. ينقطع الاتصال، وأصفن.

لقد شاهدتُ ملامح من كلّ هذا في جيل النكبة الأول، حتى بعد مرور ربع قرن على ما حدث. كانت جدّتي وجدّي وأمّي وأعمامي وأخوالي، بشراً أميَل للصمت، من المبادرة بالكلام. كنت أجلس مع أمّي بالساعات ولا نتكلّم. مع جدّي وجدَّتَي كذلك.

من قال إنّ سرقة وطن، وإرسال ناسه إلى جحيم اللجوء، يمكن التعبير عنهما بالكلام، والكلام محض زفير مُتكسّر؟ لقد عانيتُ من هذا مثلما عانوا تماماً. وإلى اليوم، فإنّ الجوهري في الرواية، لم ينكتب، لا شعراً ولا حتى نثراً، خلال مسيرة شخصية تكاد تصل إلى نصف قرن، مع مجالَدة الحرف.

ثمّة محظوظون من أدبائنا اجترحوا الجوهر، في مصائد اللغة، ولكنّي لست منهم، بأيّة حال. إنّها مسألة موهبة، يدعمها استعداد لاستدعاء أصداء الحدَث المفصلي، دون الخوف من تهتُّك العَصَب وانكماش الرئتين، وانعطاب القامة. لا بأس... فالأهمّ الآن، ألّا نسمح لعدوُّنا بوضع بصمة المكوى على جلودنا، مثلما حدث عام النكبة. لقد تغيّر الزمن، وارتقى الوعي الفلسطيني الجمعي، فوصل إلى مرتبة الندّ، مغادراً دور الضحية البكّاء الشكّاء، وقد طاوله العجزُ والانكشاف. وها هو اليوم يؤلمهم كما يتألّم، ويضرب على عصبهم العاري، فلا يجدون سوى الحلّ الرخيص والخسيس والأسهل: التوحّش على المدنيّين الآمنين تحت سقوف بيوتهم، واغتيال الأطبّاء والمرضى، في الأروقة، وعلى أسرّة المستشفيات.

(شاعر فلسطيني مُقيم في بلجيكا)

ثمّة نوعان من اللغة يشيعان في أمكنة النزوح: الهمس والصمت

رجل فلسطيني يُعاين منزله المدمّر إثر قصف إسرائيلي على خانيونس، أول أمس الأحد (Getty)

مشهد

يحتاجُ المرءُ قلباً من الفولاذ

بيوت أهل فلسطين

نزف الدم من أقاصي قلوب وأرواح الفلسطينيّين حتى بنَوا بيوتهم، وشيّدوا لأنفسهم مأوى من عواصف الحياة التي لا تنتهي، لكنّ «إسرائيل» تُمعن في تدميرها وهدمها، ظنّاً أنها بهذا العقاب الجماعي تستهدف الروح المقاومة

عاطف الشاعر

أفكّرُ في الحروف الثلاثة التي تتكوّنُ منها كلمة «بيت» (ب/ ي/ ت)، وفي المحتوى الدلالي، والحياتي والنفسي لهذه الكلمة. أليست معجزة أن تضمّ هذه الحروف الثلاثة حيواتٍ لا تنتهي من المسكن والسكينة للجسد والنفس؟ وبيوت الناس ليست سواسية، لكنها في النهاية مأوى يلجأُ إليه الإنسان ويلقي رأسه على وسادة أو ما كان، فتستقيم الأمور، حتى وإن لم تكن كذلك. إذاً البيتُ وسادةٌ ودرعٌ وحاضنةٌ أمام فساحة العالم وصخبه في آنٍ واحد.

وإنّها لمصادفة عبقريّة حقاً، أن تُطلقَ لفظة «بيت» على البيت الشعري باللغة العربية، فالشعر، أيضاً، وسادةٌ ودرعٌ وحاضنة، وإن كان لغة، أي إطلالات كلاميّة دون أُسس مادّية ملموسة. لكن في الحقيقة هذا ظاهر الشيء، أما الأهم فإنّ الشعر، أيضاً، له عوائد مادّية كثيرة من ناحية السكون النفسي الذي يتولّدُ من المعنى، أياً كان المعنى، وصدى البناء اللغوي الذى يتأتّى من الشعر والتحام الأحاسيس، لعلَّ الإنسان يرتقي معنىً وروحاً. إذاً، في البيت سكَنٌ وسكينة، وفي الشعر سكَنٌ وسكينة. وكلاهما، البيتُ والشعرُ، ارتقيا بالفلسطينيّين شعباً وقضيةً وأصداء بقاء. لكنَّ الدوائر تدورُ والمآسي تتعاظم، فتسقطُ البيوت مع أهلها، ويعجز الشعر عن سدِّ الرمق. يعلق الشعر في روحٍ عطشى لخلاص ما في هذا العالم المُوحِش.

قد يبدو ما سبق فذلكة فلسفية، في سياق ما يجري بغزّة وعموم فلسطين، من حرب صهيونية همجية لا مثيل لها ضدَّ الشعب الفلسطيني البطل والصامد والمُحتسب. لكنّ فكرة البيت الذي تهدمه «إسرائيل» هو في صميم ما أودُّ التطرّق إليه. «إسرائيل» تستهدفُ الروح الفلسطينية من خلال تدميرها بيوتهم، وتمعنُ في ذلك لكسر الإرادة وهجران المعنى من مقاومتها ككيان محتلّ حقير. هي تعرفُ أنّ الفلسطينيّين كأفراد، آباء وأمّهات وأبناء وبنات، نزفَ الدم من أقاصي قلوبهم وأرواحهم حتى بنَوا بيوتهم، وشيّدوا لأنفسهم مأوى من عواصفِ الحياة التي لا تنتهي فتكاً وضغطاً. تمعنُ «إسرائيل» في التنكيل الجماعي من خلال استهداف بيوت الفلسطينيين اليوم كما سرقت بيوتهم الفسيحة وحدائقها الجميلة في عام 1948، ومنحتها للُّصوص من أصقاع العالَم فقط على أساس ديانتهم اليهودية، ولا شيء آخر، وفي حالات قليلة أُخرى على أساس انتمائهم للصهيونية كفكرة تطهير عرقي.

وُلدت الأمور مشؤومةً مع هذه الدولة الصهيونية وتفاقم الشُّؤم، فمن سرقة البيوت وإبادة ساكنيها، إلى هدمها بعد إخلاء السكّان منها، إلى ما هي عليه الأحوال في غزة حيثُ تُهدَم البيوت على رؤوس ساكنيها، وتُهدم بالجُملة، وتتهاوى مربّعات سكنيّة بأكملها. تلك المربّعات التي كانت تعجُّ بالحياة وترفعها بالضحكات واللقاءات عند زوايا الشوارع، و«أكل البزر»، و«لفّات الشاورما»، والسلامات بالأيادي والعناقات الحارّة، ولعب الكرة المكوّنة من «جرابين» وركلها على حيطان يتشاركها الجيران، وابتسامة ماء المطر حين يأتي في عيون الأطفال، وسطوع الشمس على الحجارة وكسوتها بالذهبي المُسَكّن للنفس. كلُّ هذه تصبح أنقاضاً. وتبدأ البلبلة والفاجعة في البحث عن الناجين بين الأنقاض. والأنقاض كلمةٌ مُؤلمة على حاسّة السمع، فهي تحملُ في طيّاتها موتاً، ونزفاً وهلعاً وخوفاً وتشرُّداً ومستقبلاً بلا عنوان. يحتاجُ المرءُ قلباً من الفولاذ للصبر على ظُلم كهذا وواقع مُزر كهذا. تهدمُ «إسرائيل» بيوتاً من الباطون، وبيوتاً من «الزينكو»، وبيوتاً من الإسمنت، وبيوتاً من قماش الخيام، وبيوتاً من رؤوس وأرواح البشر. أودُّ لو أن اللغة تصرخُ لأصرُخَ من خلالها على هذا القهر، وهذا الظلم، وعلى بعض من جيوب هذا العالم البشع.

مساكننا عيوننا
يشيخُ فيها الوقت
ويسكنُ فيها القلب
والهاوية.

(كاتب وأكاديمي فلسطيني مقيم في لندن)

كلاهما البيت والشعر ارتقيا بالفلسطينيّين شعباً وقضية

فتاة وشقيقها يجلسان قرب أنقاض منزلهما الذي دمّرته غارة صهيونية على رفح، أول أمس الأحد (Getty)

وجوه من غزّة

إلهام فرح (1939)، تُعدّ من أوائل مُعلّمات الموسيقى في غزّة، وهي ناشطة اجتماعية وثقافية فيها، أطلق عليها قنّاص إسرائيلي الرصاص، وهي في طريقها من «كنيسة العائلة المقدّسة» إلى منزلها في حيّ الرمال، وتُركت لتنزف حتى الموت، في الثالث عشر من الشهر الجاري، بعد أن منع جيش الاحتلال وصول المُسعفين إليها.

«إذا غادرت من سيعالج المرضى؟» هذه هي رسالة الطبيب **هُمام اللوح** (1987) الأخيرة، التي تركها قبل أن يستشهد في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر الجاري، إثر استهداف طائرات إسرائيلية منزلاً كان يُقيم فيه بجوار «مستشفى الشفاء». يُشار إلى أن الشهيد استشاري أمراض وزراعة الكلى وضغط الدم، عَمل في عدة مستشفيات بغزّة، وكان يُدرّس بـ«الجامعة الإسلامية» فيها.

محمد شاكر صافي، كان يعمل مُعلّماً للتربية الرياضية في «مدرسة المتنبّي» بخانيونس. وقد كتب أحد طلّابه ينعاه في الخامس عشر من الشهر الجاري: «كان صديقاً لنا وليس مجرّد مُعلّم، صديقا طيّبا وحبيب الكُلّ، يطمئنّ علينا في كُلّ وقت، حتّى أنّه أصرّ على مُقابلتي في بداية الحرب ليسلّم ويطمئنّ عليّ».

مصطفى الصوّاف كاتب صحافي ومحلّل سياسي، يُعدّ من أقدم الإعلاميّين في غزّة، عمل مراسلاً لوسائل إعلام مختلفة فلسطينية وعربية وعالمية، مثل «بي بي سي» وصحيفة «النهار» المقدسية، وهو مؤسّس ورئيس تحرير سابق لصحيفة «فلسطين». استُشهد مع أفرادٌ من عائلته، أوّل أمس الأحد، في قصف للاحتلال على منزله.